في ذكرى الحنفي البغدادي

اعداد المدى الثقافي

في وداع الراحل الكريم الشيخ جلال الحنفي

عبد الحميد الرشودي

كل يوم لنا فقيد جديد
والمنايا رواصد لا تحيد
أيتها السيدات الفواضل:
أيها السادة الأماثل:

أحيي فيكم روح الوفاء ونبل الإخاء وأنتم تنادون وتلتئمون في هذه الندوة الكريمة في هذا الصباح الحزين لتودعوا رجلاً قليل المثال نادر الطراز بين الرجال أعطى وطنه وشعبه أكثر مما أخذ، أعطى عصارة فكره وحشاشة قلبه وكتب بنجيع الدم القاني أكثر مما كتب بالمداد الأسود. فإذا استطاع الموت ان يقضي على جسده الفاني –والموت غاية كل حي –فلن يستطيع أن يطوي صفحات علمه الغزير وأدبه النضيد، تلك الصفحات المشرقة والأفكار النيرة التي توج بها هامات البحث العميق والدرس الموضوعي الرصين خلال سبعة عقود كوامل حافلة بالجدال والسجال فقد إلف الفقيد الكريم السباحة ضد التيار وهذا بطبيعته قمين بان يخلق له من الأصدقاء والأولياء بقدر ما يخلق له من الخصوم الألداء صمد لهم صمد الواثق ودافع عن آرائه وأفكاره حتى خرج من أكثر هذه المعامع معقود اللواء وضاح الجبين.

وإذا كان الخالق - جل وعلا –لم يمنحه بسطة في الجسم فقد عوضه عن ذلك فمنحه بسطة في العلم وفسحة في الأجل استطاع خلالها أن يكتب ويؤلف ويناقش ويساجل حتى في صفحات الجرائد والمجلات وكان له مثول دائم في أغلب الندوات والمجالس الأدبية ومشاركة في كل موضوع يطرح ومداخلة ذكية تعينه على ذلك ذاكرة عامرة لا يعزب عنها حتى الدقائق والجزيئات وذكاء ثاقب لماح وخزين من المعلومات لا يجف معينه ولا ينضب.

حدثني الصديق الراحل جميل الشواف قال: قصد الشيخ جلال الحنفي مجلس والده العلامة الشيخ عبد الملك الشواف وفتح معه نقاشاً وحواراً في بعض المسائل الفقهية والشرعية وحين غادر الحنفي المجلس قال الشيخ عبد الملك الشواف على رؤوس الأشهاد من حضار مجلسه ان هذا الشاب الذي رأيتم أعلم المعممين. إن شهادة من الشيخ الشواف، وهو من هو علماً وأدباً –لها أثرها وخطرها وبخاصة إذا علمنا أنه قالها في غيابه وبعد مغادرته المجلس لأنها لا تحتمل المصانعة أو المجاملة.

رأيت الشيخ الحنفي أول مرة سنة ١٩٤٣ وإن كنت سامعاً به ولكن لم أطبق الرسم على الجسم.. وذلك عندما دخلت جامع الآصفية لأداء صلاة الجمعة فارتقى المنبر شاب ذو عمة ضامرة كجسمه الضامر –فرأيت ثم رأيت خطيباً يرتجل الخطبة ارتجالاً فلم يقيد نفسه بالسجع المتكلف أو التغني والتنغيم الذي درج على اتباعه ومراعاته سائر خطباء المساجد فوقع من نفسي موقعاً كريماً وتقبلته بقبول حسن فأكبرت فيه روح التجديد وكسر قيود التقليد فلما انفرط عقد المصلين سألت أحدهم عنه فقال لي أنه الشيخ جلال الحنفي فقلت في نفسي هكذا فليكن الخطباء وإلا فلا. ويبدو ان الشيخ قد تأثر بخطباء المساجد في مصر فقد كان قريب العودة إلى بغداد من بعثة الأوقاف إلى الجامع الأزهر. فقد قفلت البعثة إلى العودة بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية بعد أن أصبحت مصر هدفاً للغارات الجوية الألمانية.

ثم بعد مضي عدة سنوات رأيته يتردد على مكتب مؤرخ العراق الأستاذ عباس العزاوي المحامي في خان الباجه جي الكائن في سوق الساعاتية وهناك عرفته عن كثب وقامت بيننا معرفة ومودة وقد ذكر لي العزاوي أن الحنفي كان من طلابه في دار العلوم وكان –لفرط ذكائه –يثير كثيراً من الأسئلة والنقاش في الصف.

ثم تجدد لقائي به في مجلس الأستاذ الأديب الراوية السيد مكي السيد جاسم الذي كان يلتئم شمله في مساء كل ثلاثاء في داره في المأمون. أما المرحلة الأخيرة من لقاءاتي به فكانت في مجلس الأستاذ الأديب الشاعر محمد جواد الغبان الذي ينعقد في داره مساء كل أحد في شارع فلسطين وكان الحنفي من المواظبين على الحضور فقد كان مجلساً عامراً برجال الأدب والفكر في طليعتهم الدكتور علي الوردي والدكتور حسين علي محفوظ وإبراهيم الوائلي والدكتور عبد المجيد العصاب وسالم الآلوسي وعبد الغفار وعبد الغني الحبوبيان والشاعر علي الحيدري وغيرهم الكثير ممن غابت عني أسماؤهم وأسمحوا لي أن أقتبس طرفاً من هذه الصورة القلمية التي رسمها بقلمه البليغ الدكتور عبد الرزاق محيي الدين رئيس المجمع العلمي العراقي الأسبق فهي من خيرة ما كتب عن الشيخ الحنفي: "والشيخ جلال –بعد – على هزال جسمه وضمور عوده –صعب المراس قوي النفس، يدير الحديث معك –مع أدب وتواضع –بقدرة الواثق من نفسه المعتد برأيه. ياخذ ويعطي، ويسأل ويجيب. ويفتح عليك أبواب الشك فيما أنت مؤمن به غير هائب أن يكسر قاعدة أو يخرج على مسلمة.

مفتاح شخصيته، إلى جانب ذكائه ودقة ملاحظته –طموح إلى أن يكون شيئاً في كل شيء وطاقة نافذة إلى كل مسارب القوة والضعف في أي مقولة مسلمة. فإن لم يجد جانب ضعف في المسلمة تلمسه في تصور خصمه لها، وهو واجد ذلك، على –أي حال –في كثير من القراء والمتحدثين إليه..".

كنت في صيف ١٩٦١ أتردد على مكتبة المتحف العراقي بغية الوقوف على بعض المراجع التي احتاجها في إعداد كتاب عن جميل صدقي الزهاوي فإذا بالشيخ الحنفي يأخذ مقعده إلى جانبي ويسالني عما أنا بصدده فقلت له لقد عقدت العزم على إعداد كتاب عن الزهاوي فقال حسناً تفعل وذكر أنه كان قد اتصل به وكان الزهاوي يستعين به في تدوين بعض قصائده ورسائله ثم سألته وما الذي يشغل الشيخ فقال أني أعد كتاباً عن المغنين البغداديين وقراء المقام وناولني دفتراً متوسط الحجم فتصفحته على عجل وقرأت في الصفحة الداخلية للغلاف الأخير ما هذه فحواه!

بعد الاتكال على الله انتميت إلى معهد السيد محمد الحسيني في الموسكي لتعلم فن العزف على العود وقد دفعت له القسط الأول وقد أرخ ذلك سنة ١٩٤٠ وغاب عني اسم اليوم والشهر وهذا الصنيع يدل على أن الشيخ يرى رأي حجة الإسلام أبي حامد الغزالي في حلية السماع ما دام لا يشغلك عن عبادة ربك ولا يدعو إلى المجون والفجور لأن الغزالي يرى ان الغناء والموسيقى ما هما إلا محاكاة لعندلة البلابل وهديل الحمائم وزقزقة العصافير وهما من صنعة الله جل وعلا فضلاً عن أن السماع يشجع الجبان ويندي كف البخيل الشحيح ويوقظ المشاعر النبيلة في نفس الإنسان، ثم يخلص الغزالي إلى القول: فمن لم يرقه السماع فهو مختل المزاج ولا يجدي معه العلاج. أما نظرة الشيخ إلى أهل الأديان والملل والطوائف فهي نظرة توفيقية نظرة مسالمة وموادعة وآية ذلك أن له علاقات مودة وصداقة حميمة مع جميع هؤلاء فهو في هذه السبيل داعية من دعاة التقريب بين جميع الأديان والطوائف وقد علم هذه الحقيقة كل من قدر له أن يصحبه أو يجالسه ويطلع على خاصة أمره فما أحوجنا اليوم إلى إحلال روح التسامح والتفاهم بين جميع أبناء الشعب وأن يسود الوئام بدلاً من التنافر والخصام علنا نخرج من هذا التيه ونضمد هذا الوطن الجريح ونسعف وننقذ الشعب الذبيح فقد طفح الكيل وسال السيل وصار الأخذ بالشبهة والقتل على الظنة وأصبح المعروف منكوراً والمنكور معروفاً كأن الشاعر كان يعنينا بقوله:

أرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهام

هذا وفي الختام آمل أن لا تحول رهبة الموت وألم الفراق دون الإشارة إلى آثاره ومؤلفاته التي اربت على أربعين مؤلفاً مطبوعاً وأنا آت في هذه العجالة على ذكر أهمها:

١- التشريع الإسلامي –تاريخه وفلسفته –الجزء الأول –طبعه يوماً كان طالباً في الأزهر مبعوثاً من قبل مديرية الأوقاف سنة ١٩٤٠,
٢- معاني القرآن –الجزء الأول –بغداد – 1941.
3-معجم الألفاظ الكويتية في الخطط واللهجات والبيئة بغداد ١٩٦٤,
٤- الأمثال البغدادية في جزءين ١٩٦٢.1964 –
5-معجم اللغة العامية البغدادية صدر منه ثلاثة أجزاء طبع الأول سنة ١٩٦٣ والثاني ١٩٦٦ والثالث سنة ١٩٩٣ وقد وصل فيه إلى حرف الزاي.
٦- المغنون البغداديون والمقام العراقي صدر عن وزارة الإرشاد سنة ١٩٦٤,
٧- العروض –تهذيبه وإعادة تدوينه –الطبعة الثانية صدر عن وزارة الأوقاف. مطبعة الإرشاد سنة ١٩٨٥ وهو يقع في ٨٤٦ ص.
٨- كتاب عن النبي محمد (ص) قرآنياً ص,٥٤٦ إلى غير ذلك مما يتعلق بفن التجويد والإملاء والإقراء.

تغمد الله الفقيد برحمته والهم أسرته وأنجاله واصدقاءه وعارفي فضله جميل الصبر وحسن العزاء

عبد الحميد الرشودي
قاعة ديوان الشرق والغرب
صباح الثلاثاء ١١/نيسان/٢٠٠٦

جلال الحنفي

الشجاعة في الوصول إلى الحقيقة

باسم عبد الحميد حمودي

الشيخ العلامة جلال الدين بن محيي الدين الحنفي البغدادي، قمة في المعرفة والأدب والحكمة والشجاعة في إبداء الرأي واستخلاص الحقيقة التي يذكرها دون تزويق ومقدمة الشيخ حنفي لدراسة صديقه الراحل عبد الحميد العلوجي عن الزوج المربوط الصادر عام ١٩٦٤ خير دليل على تلك القدرة على التحليل فهو يدين سحر الربط ولا يؤمن به ولكنه يجد أن من الضروري البحث فيه للوصول إلى الحقيقة الشعبية في مسألة الربط وذلك لقلة خبرة العريس وخوفه والإيحاءات السلبية ليلة البناء ليصل إلى صيغ الربط والحل فيدين ذلك، والبحث عن الحقيقة الشعبية في المعارف العامة لدى الحنفي أدخله معترك العادات والتقاليد والأطعمة والأزياء والأمثال والموسيقى إضافة للدراسات الأدبية والاجتماعية والدراسات القرآنية والدراسات في علوم التجويد والإملاء واللغة وفي الزكاة والإحسان وفي علم العروض وفي معاني القرآن الكريم وله في كل ذلك كتب ودراسات بلغت أكثر من أربعين كتاباً ورسالة بين مطبوع ومخطوط.

من كتب الحنفي التي تعد مراجع في البحث إذا أغفلها الباحث فكأنه لم يقل شيئاً كتابه الخالد (المغنون البغداديون والمقام العراقي) الصادر عام ١٩٦٤ عن وزارة الإرشاد العراقية وقد وضع بعد المقدمة الواسعة في المقام معجماً في أكثر من ثلثمائة مغن عراقي فيما كانت دراسته الصادرة عام ١٩٨٩ بعنوان (مقدمة في الموسيقى العربية) استكمالاً تفصيلياً للبحث في الأغاني العراقية وسلالمها الموسيقية وأنواعها التاريخية والمعاصرة، ويأتي بحثه في اللغة العامية البغدادية الذي صدر بثلاثة أجزاء حتى الآن بدأها بالجزء الأول عام ١٩٦٣ بعنوان (معجم اللغة العامية البغدادية)، يأتي دليلاً لا على تتبع الحنفي للكلمة العامية المفردة بل لارتباطها باللغات الأخرى أخذاً وعطاء وتطوراً ما يدل على متابعة دقيقة للتطور الخاص بالكلمة وقد وجد الحنفي الجليل القدرة على أن يكتب معجماً للألفاظ الكويتية أصدره عام ١٩٦٤ وغدا مرجعاً للباحثين الكويتيين وسواهم، وكان من أسباب تأليف هذا المعجم، رحيل الحنفي لفترة عام ١٩٥٩ إلى الكويت بعد فصله من الوظيفة من قبل رئيس ديوان الأوقاف آنذاك الشيخ محمد بهجت الأثري وعدم قبوله العودة إلى الوظيفة كخطيب وإمام لمسجد من مساجد بغداد برغم صدور مرسوم جمهوري بذلك بل فضل العمل لفترة خبيراً في وزارة الإرشاد وكان ذلك من صالح الأدب والتراث الشعبي حيث كتب في الصناعات والحرف البغدادية كتاباً أصدره عام ١٩٦٦ ونشر (المغنون البغداديون) قبل هذا وانصرف لاستكمال بحوثه في العروض وفي معجم الألفاظ وتشجيعه إصدار مجلة (التراث الشعبي) التي صدر عددها الأول في أيلول ١٩٦٣ كمجلة شهرية رأس تحريرها الأستاذ الدكتور إبراهيم الداقوقي وكان سكرتير تحريرها المرحوم الباحث الأستاذ لطفي الخوري وكان الحنفي والعلوجي وحسين علي محفوظ وسواهم من رجال الفولكلور العراقي في مقدمة المسهمين في هذا المشروع الثقافي الحيوي.

وللحنفي وجوه أخرى غير وجه الفولكلور منها وجه الشعر ووجه البحث الديني ووجه الدراسة الاجتماعية في الزواج والصحة وجنوح الأحداث وله وجه آخر هو وجه المشاكسة حيث خاض نقاشاً مع الإمام الخالصي طبع في كراس عام ١٩٥٣ ودخل مع حياة الرصافي مدخلاً نقدياً في كتابه الرصافي في أوجه وحضيضه الذي أصدره كجزء أول عام ١٩٦٢ وللحنفي وجه آخر هو وجه التحقيق حيث حقق كتاب الدر النقي في علم الموسيقى لأحمد بن عبد الرحمن الشهير بالمسلم الموصلي عام ١٩٦٤، وله كتب ودراسات لم تطبع بعد وقد لا يطبع بعضها يوماً لصراحتها وبعثرة أوراقها.

كل ما في جلال الحنفي مضيء ويستحق التحليل والإشادة فقد كان الرجل أكبر من باحث واحد إذ هو مجموعة باحثين تبدت في أهاب رجل نحيل ذي عقل مستنير ارتدى العمة والصاية والعباءة وتسلح بعصا المعرفة دون أن يتسلح بسواها فأبدع وأعطى طوال سني عمره المديد فترك آثاراً من الطبيعي أن ندعو إلى إكرام ذكرى جلال الحنفي بالدعوة إلى طبعها من جديد فبعضها نادر وكلها بحوث أصيلة تؤسس لمعرفة جديدة.

وصية جلال الحنفي
لا أريد تشييعاً أو مجلس فاتحة

كتب الشيخ جلال الحنفي وصيته لأهله بخط يده قبيل وفاته وقد جاءت كالتالي:

الموت حق علينا-أوصي بعدم إقامة مجلس فاتحة لي وتقبلوا تعازي كل من جاءكم إلى البيت وأحسنوا ضيافته وأوصي أن يصلي علي تلميذي الشيخ عدنان الربيعي مسبلاً – ولا أريد تشييعاً – وبالنسبة لكتاب معجم اللغة العامية البغدادية جمعت قصاصاته في خزانات المكتبة- أتمنى أن يأتي من يحب بغداد ويطبع هذا الكتاب ليخلد لبغداد لغتها وأتمنى شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم.

جلال الحنفي

احتفالية جمعية أصدقاء بغداد وديوان الشرق -الغرب

صباح الثلاثاء الحادي عشر من نيسان الحالي كان صباحاً حاشداً وحزينا لمحبي بغداد حيث احتشدوا في مبنى (ديوان الشرق-الغرب) بدعوة من الديوان و(جمعية أصدقاء بغداد القديمة) للاحتفال بأربعينية الشيخ جلال الحنفي وفي بدء الحفل ألقى الشاعر جواد الحطاب كلمة الديوان المعبرة عن أسى الكلمة والأدب والفولكلور لفقد الراحل ثم ألقيت كلمة شيخ بغداد العلامة أ.د حسين علي محفوظ المشيدة بالراحل الكريم ثم ألقى الباحث باسم حمودي كلمة أهل الفولكلور تلاه الأستاذ عبد الجبار محمود السامرائي بكلمة تحمل ذكرياته الطيبة عن الحنفي ثم أعقبه الأستاذ عبد الحميد الرشودي بكلمة الأصحاب ثم حيا ذكر الفقيد الإذاعي الكبير نهاد نجيب والمذيعة اللامعة أمل المدرس والأستاذ داود الرحماني وأ.د عماد عبد السلام الذي دعا إلى جمع نتاج الفقيد المبثوث في الصحف ثم سلم درع الجمعية الأستاذ سالم الآلوسي إلى الشيخة حرم الفقيد ثم القيت كلمة أهالي الكاظمية من قبل الأستاذ باسل مجيد رشيد وكان الأستاذ محمد إسماعيل يقدم الجميع بروح من الإبداع والإحساس بلوعة الذكرى.